مع دخـول الألـفـيـة الـثـالـثـة

الـشِّـعـر !! أشـيـاء قـديـمـة لا تـزول

ثمة إنسان يكاد يرمي أوراقه للريح، ويمضي ليعبر العتمة، ويسدل الستار على فصل موجع، قوامه أن الشاعر أنهى دوره، وذهب إلى العدم! هكذا دون مقدمات واضحة ومبررة، وهكذا يرى البعض نهاية الشعراء مع نهاية هذا القرن، ودخول الألفية الثالثة.

وربما كان ثمة معيقات، بدءاً من الملاحقة والقيود والسقوف، ومروراً بسيطرة ثقافة المسيطر النقيض وحصاره، وانتهاءً بالفقر الشامل الذي يدقّ عنقَ الشعراء مالاً وقرّاءً. غير أن الشعر ظل قادراً على الاختراق والحضور بهالته وسطوته وأناقته.. رغم حالات الزبد والتشظي والحدود، وغياب النقد ودور النشر والمنابر، ورغم نداءات الإعدام الصادرة بحق هذا المقدس المهيب.

ولعل المبدعين يملكون، بالطبيعة، ردات الفعل على كل فعل، وبصورة أكثر حكمة وصواباً، رغم ما تحمله رداتهم من التطرف والمبالغة، فعلى سبيل المثال، لم تكن «الدادية» أو الدادائية إلا ردّة فعل على نتائج الحرب العالمية الأولى، حيث رفض نفر من المبدعين كل ما أنتجته البشرية في أوروبا من آلات دمار وطغيان وقتل، مما دعاهم إلى تكسير وتجاوز كل القوانين والأشكال والأصول. كما أن «السوبرمان» لم يأت به نيتشه إلا ليؤكد عظمة الإنسان أمام تلاشيه وتهميشه بفعل سيطرة الآلة.. أي لإعادة الاعتبار للإنسان. كما أن دعوة «ت. اس. إليوت» لم تكن دعوة «رجعية» بقدر ما كانت نداء للعودة إلى الروح في ظل قتامة وجهامة المادة وقسوتها.

في المقابل، ثمة مشهد ينوء فيه الشعر من أثقال الأزمة التي طوقته مؤخراً، ومن استلابه وتعويمه، وانفتاح النصوص الأخرى عليه وانفتاحه عليها،

بحيث ذابت الحدود والفواصل حيث بدت الذائقة الجمالية خارج موضوعها، هذا عدا أثقال يومية وموضوعية تسعى لعرقلة مسار القصيدة التي توزعت بعدد كاتبيها، فظهرت وكأنها في حالة تشظية وانهدام وأنها وصلت طريقاً مسدوداً، بعد أن سيطرت «الشكلانية» على كل شيء.

وعليه: ماذا ستكون ردة فعل الشعر، مع دخول تخوم الألفية الثالثة التي تتصدر بواباته العولمة واستلابها، والأسواق المتحكّمة، والأسلحة المرعبة وتقنيات الألفية القادمة، حيث تسعى التكنولوجيا إلى التقليل من حجم العالم، والتعمق فيه، وتفكيك أجزائه ودقائقه، وتغيير أشكاله بما في ذلك من توجيه «إهانات» للطبيعة بقصد «تصحيحها».

وحيث تسعى السياسة إلى تقريب الحدود أو إلغائها، وإلى تجميع الكيانات من خلال بنك واحد أو صندوق مالي مشترك أو جوازات سفر لها قوة السياحة والانسياح.

وحيث يسعى الاقتصاد إلى تقزيم الحكومات وتفريغ الشعوب إلى مجرد مستهلكين، وحيث يتم السعي «للمهارة» و«الكفاءة» على حساب كل شيء وأي شيء.

وحيث تسعى الفلسفة إلى فهم أو محاولة مقاربة هذه «النهاية» أو البحث عن أعداء محتملين أو كامنين، أو معرفة اتجاه التاريخ، وكأن البشر وصلوا حقاً إلى النهاية...، وحيث يتجه العقل البشري، مرة أخرى لفهم الأسطورة بوساطة التكنولوجيا، التي تؤسس أسطورتها. لأن للتكنولوجيا أساطيرها، أيضاً.

هناك استنساخ الإنسان من خلايا جسمية، ليس فقط للجسد وإنما للنبوغ وللروح.

وهناك حلم «الروبوت» الكامل بدلاً من الإنسان الكامل .

وهناك حلم «عالم بلا أمراض» أو «حياة بلا موت» .

وهناك حلم تحويل الإنسان إلى «سيارة» يمكن استبدال أعضائه أو صيانتها أو تجديد شبابها وصلاحيتها .

وهناك طموح ايجاد شركاء لنا في هذا الكون .

أساطير التكنولوجيا تفتح عالماً مذهلاً، تقل فيه أهمية البشر وتزيد فيه أهمية «المعرفة» التي تتراكم وتتزايد إلى الدرجة التي يجب «خلق» جهاز معدني يحفظها .

أساطير التكنولوجيا تخلق مسافات وفروقات وفجوات بين الإنسان والآلة التي يصنعها، وكذلك، وبذات الدرجة تزيد من دفقات الخوف بين الإنسان وآلته التي خلقها .

وهذا هو القرن - على مدى تاريخ البشرية - الذي يخشى الإنسان فيه من شيء صنعه بنفسه . . لم يعد الخوف من الطبيعة أكبر من الخوف من الآلة .

*

سيجد الشعر نفسه قبالة تحديات كبيرة، بدءاً مما أفرزته دول العالم الأول في القرن العشرين، من صناعات لها وميضها النافذ، كصناعة الجنس والموسيقى والأفلام، إلى ما أفرزته الإبداعات الأخرى من «متعة» و«فن» و«لذة» وخصوصاً أن الألفية الثالثة، ستزيد من قوة الإبصار، وسيشكل البصر - بمعانيه العلمية والفنية - الدعامة الأولى والأكثر أهمية في تلقي

مكونات العالم، وستشكل «الشاشة» قناة اتصالنا الأكثر ضرورية لنا، فكل شيء يتحول إلى معلومات على الشاشة، كل شيء سنراه في الجهاز، وستتم رؤيتنا من خلال شاشة، ليس إلاّ!!

وستشكل هذه الشاشة علاقتنا مع العالم الذي سيتحول هو الآخر إلى صورة.. وليس إلى كلمة.. سنتحول إلى البصري على حساب المقروء. وفي هذه الأثناء، يطورون لغة عالمية تعتمد الصورة وليس الحرف «ليتعارف» البشر فيما بينهم، وما لغة الكمبيوتر المتعددة إلا جزء من لغة عالمية تشيع وتنتشر معتمدة في ذلك على «قوة البصر».

*

والشعر جميل، فيه فانتازيا حرة، انسيابية، سائلة، وغرائبية لا حدود لها، ومنطق تختفي فيه الحدود والجغرافيا والمنطق، الأمر الذي يشكل إغراءً للآخرين «لاستغلال» الشعر فيفتحون نصوصهم على عروق الذهب وشرايين البرق المضيئة في الشعر، لإكساب هذه النصوص تلك المسحة الخارقة من جنون الكلام.. وشبق الركض في غابات من الغرائبية الرائعة.

إن «استلاب» الشعر من نصوص أخرى يدل دلالة قاطعة على أن ما في الشعر، ذلك الغامض، والساحر في آن، يشكل دائماً تلك الساحة الخلفية التي نتعرى فيها أمام الشمس والريح، لندع أجسادنا تلتقط راحتها، ولأرواحنا أن تفيض كما تريد وترغب.

وإن ذهاب الفنون باتجاه الشعر - حتى السينما، تلك التسلية الشعبية - ليدل أيضاً على أن للشعر قوة لا تنتهي.

إن الرغبة في التحطيم أو التفكيك أو التكثيف أو التخييل، وهي عمليات أو اتجاهات نراها في معظم النصوص الفنية والأعمال الإبداعية، ما هي إلا من آليات الشعر في وصف العالم.

*

أي شعر سنراه ونقرأه في الألفية الثالثة ؟
هل سيعود الشعر للتعبير عن الصراع بين المدينة والقرية؟
أم يلتقط ذلك الرعب بين الآلة والإنسان؟
أو يوظّف نفسه ليقف مع حركات التحرر والشعوب المضطهدَة؟!
أم سيجد نفسه في مواجهة سيطرة المال والإدارة؟!
هل سيقف الشعر - كما وقف دائماً - مع الإنسان ضد كل الأخطار التي تهدده؟!
هل سيُسمح له أن يكون كذلك.. ضمن منظومات قيمية واقتصادية وسياسية تنزع إلى «التوحّد» و«التجميع»؟!
هل سيكون الشعر شيئاً آخر ضمن منظومات قليلة الاختلاف متشابهة الأهداف؟!
هل سنشهد مثلاً ميلاد «شعر علمي» على فكاهية التعبير؟! مثلما شهدنا رواية علمية بالغة الخيال والجموح؟

*

ماذا يقول الشعر بما يقترح أمام هذه النـزعات للتجميع من جهة والتفكيك من جهة أخرى؟!

ماذا يقول الشاعر وهو وحيد لا يملك من قوى سوى خياله وحساسيته المفرطة ورغبته في المشاركة؟!

ماذا يقول الشاعر أمام قوة المصنع وجبروت الإدارة وطغيان المال؟!

هل يملك الشاعر سلعة انتاجية؟ هل يستطيع تسويق إنتاجه؟ وهل لإنتاجه أصلاً قوة المنافسة أو أهمية الصادرات والواردات؟!

*

وحتى هذا الخيال الذي ينضح منه الشاعر . . هل يستطيع أن ينافس خيال أو فنتازيا الكمبيوتر والإنترنت؟!

وهل يستطيع هذا الخيال الشعري أن يسابق الإنتاج السينمائي المتعدد المستويات الفراغية أو غيرها من أساليب الإنتاج المرئي؟!

وهل حقاً مات المثقف باعتبار أن «منتج الثقافة» تعدد وتنوع إلى درجة لم تعد هناك حاجة إلى مثقف يفلتر المعلومات أو يصنفها أو يلونها بأيديولوجيته؟!

*

وما الذي سيقدمه الشعر في عالم واضح، علمي، نفعي، مغرور بالقوة والصلف؟!

ما الذي سيقدمه الشاعر للعالم المطعون في بيئته، الصغير في حجمه، المسيطر عليه من نخب تقل يوماً بعد يوم؟!

*

الشعر بريء، بدائي، غامض، ذاتي
أنثوي، ليلي، تلقائي، مجنون
الشعر اختراع قديم قديم، بل حاجة لا بدّ منها
الشعر ابن الخوف والتضرّع والتأمل،
الشعر ابن النـزعات والرغبات والخلجات الأولى.
والعالم يدخل مرحلة الشيخوخة، ارتفعت درجة حرارته، وزادت زلازله وبراكينه وعواصفه، وبدت عليه البثور والعلل، والآلة تضطرد وتسيطر، وأجيالها المتعاقبة تفرّخ جيلاً بعد جيل، و«الإدارة» تتركز في أياد قليلة..
والشعر ما زال قديماً، بريئاً، تماماً كما باح به أول إنسان على وجه هذه الأرض..
وكما هو المر دائماً.. الشعر يبقى.. وما بعده يزول...
في الألفية الأولى كان الأمر كذلك، وفي الألفية الثانية، وكذلك أيضاً في الألفية الثالثة..
في العالم أشياء قديمة لا تزول... وعزاؤنا أن الإنسان رغم كل هذه الحديدية وهذه البرمجة المُتقنة حتى الفزع.. سيظل بحاجة ماسة، لشهقة موسيقى وطلّة ريشة، وكلمة تضوّع الحياة بأريجها المستحيل.

في الألفية الثالثة . . ستقلّ الأشياء الغامضة، وتزيد الأشياء الواضحة .

سنعيش في عالم منهك . . يصغر يوماً بعد يوم . . تقل ثرواته يوماً بعد يوم . . تتقدم فيه التكنولوجيا يوماً بعد يوم . . وتزيد النخب قوتها يوماً بعد يوم . . ولكن سيظل الشعر - كما هي العادة - ذلك المشعل المتوهج الذي يكشف عن «ذلك الرعب الذي تخبئه لنا الأيام» .

في الذكرى الخمسين للنكبة

فلسطين – إسرائيل .. خطّان لا يلتقيان

فلسطين ستظل فلسطين، وجاءت إسرائيل بفعل عوامل دولية مركبة، وفعل إجرامي يترجم «الغاية تبرر الوسيلة»، لتقوم على هيكل فلسطين العربية التاريخية، وبهذا المعنى، فإن الحديث عن فلسطين أو إسرائيل يعني الحديث عن الشي وضده المطلق، أو نقيضه الكامل وعن خطين لا يلتقيان ولن يلتقيا. وكل ما يتم ترويجه من أطروحات تبشر بإمكانية التعايش بينهما، ما هو إلا إمعان في إعطاء الشرعية لجسد حرام، أو وقوع ساذج في شرك الآخر، أو نتاج فكر سقيم. ليس لأننا كأمة عربية غير قادرين على استيعاب الآخر في حضارتنا وحياتنا، فقد برهنت أمتنا قدرتها على ذلك، بل لأن طبيعة إسرائيل العنصرية، وجوهر فكرها الديني المنغلق، يحول دون هضمها، فهي من «الحضارات» التي تنفجر من الداخل، ولا تتصالح مع من حولها، لقد جاءت إسرائيل لتعمق تشظية الأمة العربية الإسلامية وتفتيتها وتغريبها واستلابها، وخلق أمم عربية إسلامية جاهلة منشغلة متغايرة، من خلال استراتيجية ومنهاج حاسمين، وتقف، لذلك، من وراء إسرائيل الإمبريالية العالمية، صاحبة المشروع الاستعماري المتواصل.

أي أن وجود إسرائيل يعني إلغاء المشروع العربي الوحدوي التاريخي والسياسي، وأية مصالحة مع إسرائيل تعني الإسهام غير المباشر، في مساندتها لتواصل مشروعها الاستراتيجي الذي يحاول جاهداً نشر العدمية في نسيج أمتنا الواحدة.

ولسنا ضد المصالحة مع الآخرين شرط أن يتهيأوا للشروط المطلوبة التي تتنافى والعنصرية والاستغلال والفاشية. وبإمعان قليل للنظر فيما قامت به عصابات الهاجاناه وشتيرن والأرغون - التي ألّفت جيش الاحتلال

للدولة اليهودية لاحقاً – وما تقوم به إسرائيل من تحالفات مع غير العرب في محيط الأمة العربية (إيران الشاه، أثيوبيا قبل سنوات، تركيا الآن، وفي بعض دول إفريقيا) وما قامت به، إضافة لاحتلالها فلسطين والجولان وجنوب لبنان، من مجازر ورعب وتفجير للمفاعلات وقصف لكل القوى الحية، واتفاقيات مع قوى رجعية شمولية!! وإثارة للإثنية (الأقوامية) في صفوف العرب والمسلمين وإصرارها على التفاوض مع «مسارات» عربية وليس مع العرب الذين ينبغي أن يكونوا موحدين (!!) وإصرارها على تعميم الشرق أوسطية كبديل لئيم يتجاوز حقيقة أنه لا يوجد صراع في الشرق الأوسط، بل إن هناك صراعاً عربياً إسرائيلياً استعمارياً. وأخيراً طرح الشرق أوسطية كسوق إقليمية، أيضاً، كل ذلك يؤكد ما ذهبنا إليه، وهو أن إسرائيل جسم تتعدى مهمته حل المسألة اليهودية، أو تجميع اليهود في بقعة ليعيشوا عليها، إلى جسم يجب أن يُبقي المشروع الوحدوي العربي غير قادر على الانطلاق. وللأسف فإن غير نظام عربي يصبّ في ذات الاتجاه، ويغذّي السياسيات الاستراتيجية الهادفة إلى تغييب العرب وبعثرة قدراتهم وثرواتهم وإبقاء الحدود والتعمية على حالها.

إن الذين يغذون الخطى نحو التعايش المجاني مع إسرائيل هم أعوان الاستعمار أو المكرّسون لخدمته، أو الأقليميون الذين ارتّدوا عن الوحدة باعتبارها خياراً قد سقط غير مرة، ولأنهم كانوا يفهمون القومية على أنها انتماء عنصري ضيق.. فسقطوا فيما سقطوا فيه ما يفسر صوتهم الداعي إلى «الوطنية الكريهة» بدلاً من «الوحدة»، ومبررهم أن ثمة دعوات «ثقافية» لتحطيم بعض عوامل الوحدة، كالدعوة للغة المحكية

بديلاً للعربية، أو للجذور كالفرعونية والبربرية والفينيقية والكنعانية .. إلخ، وتجد لها صدى في بعض الأوساط - وهنا نفرق بين التعددية الثقافية أو الخصوصية وبين الارتداد والانكفاء العرقي - أو كالدعوة إلى عناوين الانتقائية في التراث تحت عناوين الحداثة أو الاختراق أو التجريب.

أقول كل هذا ولا تفوتني الإشارة إلى أن إسرائيل التي خلقت المؤسسة القادرة على بلورة الأمة اليهودية، والدولة الاسبارطية العسكرية القوية، واقتصاد السوق المتقدم لا يمكن ضمن موازين القوى الحالية الضغط عليها من الخارج لتستجيب لشروطنا العربية للتعايش والسلام، مما يعني أهمية التسلل إلى تعميق حالات التناقض وشواهد الخلاف، داخل إسرائيل، دون الانزلاق إلى التعايش، واستبدال الاشتباك، إلى مشهد للتفاوض والقبول.

باختصار إن فلسطين تعني لنا الحياة مثلما تعني لنا إسرائيل - اليوم - الموت الزؤام. أما عن المستقبل فإنه، بالضرورة، مشرق وريان رغم كل التدمير الواعي الذي ما زال يمارس على أمتنا.

لماذا مشرق؟ فالأسباب كثيرة وملموسة، أولها أن نظرية التغريب الاحتلالي الاستعماري الامبريالي ووجهت وتواجه بنظرية التحدي العربية الاسلامية، والتي من شواهدها تلك النتوءات الانفجارات والانتفاضات العبقرية السياسية والاجتماعية التي شهدها شارعنا العربي هنا وهناك، ما يعني أن ثمة مخزوناً متراكماً غير مرئي، يمور تحت الأرض العربية .. وسيجد له، في اللحظة المناسبة، مخرجاً ليلقي بكل حممه وحجارته في وجه الليل والظلم والظلمات.

عدا عن أن نسبة التعليم في مجتمعنا العربي في ازدياد واضح، ما يؤكد

أن هذا الكم المتنور سيفرز في أحشائه النوع القادر على القيادة والخلاص، إضافة إلى تلك الأسئلة الجارية القاسية التي تتقدم كل ساعة صوب المواطنين العرب والتي تتضمن قضايا الحريات المقموعة والحدود والإهانات وحقوق الإنسان والإذلال والجوع والمرض والثروات المنهوبة، وما إلى ذلك من مسائل لم يعد النظام قادراً على إخفائها، ولا مندوحة من أن يجد لها المواطن إجابة في وقت ما. كذلك لا ننسى أن شعبنا العربي الذي رفض التطبيع بإدراك وجسارة في مصر وباقي الأقطار الشقيقة، يؤكد على أن جمرة الوعي والانتماء إلى عوامل الوحدة التي تتفوق على عوامل الهدم والاستلاب، قادر على الرد المطلوب، في اللحظة المناسبة.. القريبة.. التي نسمع هديرها يقترب.. ويدب في الآفاق.

أما الذين يدّعون أننا في مرحلة تفاوض لتسوية حالة الحرب الدامية بيننا وبين إسرائيل، فيكفي أن يتنبهوا إلى مجمل إجراءات إسرائيل في فلسطين وجنوب لبنان، وإلى مواقف الحكومة الإسرائيلية، ما يعني استحالة حدوث حلّ يشفي غليل العرب والفلسطينيين، الذين لا يريدون سوى 22٪ من فلسطين التاريخية، وأعني الضفة والقطاع بما فيها القدس الشرقية.

- ما دامت موازين القوى تفرض ذلك، فماذا بعد غير تجدد العنف والصدام والدخول في عتمات الدّم والمواظبة حتى يقتنع الإسرائيليون ويقتنع معهم بضعة عشرات من العرب الذين لا يريدون تأبيد الصراع مع إسرائيل، بأننا لن نكلّ ولن نملّ حتى نحصل على الحدّ الأدنى من حقوقنا: إقامة دولة مستقلة وعاصمتها القدس الشريف، وسيادة كاملة

على مقدّرات الأرض والسماء والمعابر، وعودة اللاجئين إلى وطنهم الأم، جنباً إلى جنب مع الانسحاب غير المشروط حتى حدود الرابع من حزيران 1967 ومن الجنـوب اللبنانـي والجـولان. وبعدها، ربما، أقول ربما، تستقر هذه الأرض.

عشـيـة لـقـاء فـلـسـطـيـنـي إسـرائيـلـي هـنـاك .. فـي رودس

عـن الـتـطـبـيـع.. ومـعـنـى المـكـان

أخرج من قميص المسألة برمّتها، أتنفّس ما تبقى من هواء، قبل أن ينفد، أو يصادره ذلك المدجّج بالسياج والساديّة، وأخاف الذئب أن يأكلني، طفلاً أو صدّيقاً صادقاً، وأثوب إلى رشدي، لأمارس هذه التسلية الراقية اللائقة بهندامي ومصطلحاتي الكبيرة الغامضة!

فهل أدخل إلى ذلك الجامع المغلق، ذي القبّة المشقّقة، والبوابة الكبيرة الصدئة التي كُتب فوق قوسها، أن من بناه من السلاطين الأتراك، وكان من أصحاب الخيرات والحسنات. هذا قبل أن يأتي أتاتورك، ويغرّب الأمة التركية المسلمة عن جذورها، ويدخلها إلى عتمات أوروبا المتعالية.

ربما حزنت، بل حزنت كثيراً أن هذا المسجد مغلق، وأن مئذنته قد انكسرت مثل أب مات أولاده كلّهم، ومضى العنكبوت يذرع خطواته على ما نسجه دون وجل أو خوف. لم يسعفني الخطّ العربي الذي تضمّن جملة تركية، في فهم ما هو منقوش من كلام، لكن المعنى، على ما يبدو، أن أحداً من السلاطين أو الأمراء قد بنى هذا الجامع.

والغريب أن اسمه - الذي لا أذكره - قد انتهى بكلمة الروديسي، أي أنه كان من جزيرة رودس، التي هي الآن من أكبر الجزر اليونانية الأربعين وأجملها. ولا أخفي عدم معرفتي في هل كان الإسلام يحكم رودس في يوم من الأيام؟ أم كانت ثمة جالية إسلامية تقطن هذه الجزيرة الساحرة، التي اتخذ الفَراش فيها مسكنه على رذاذ النبع الصافي في الغابة الممتدة؟

رودس ذات الخمس وأربعين قرية، التي يبلغ عدد سكانها ما يقارب الستين ألفاً، ومعظمهم في بلدة رودس، ذات الأسوار والبوابات العريقة، التي تنمّ عن امتلاء وهندسة عمرانية أنيقة باذخة! رودس..

الجزيرة التي تم توقيع معاهدة الهدنة فيها، أو شهدت أول توقيع بين العرب وإسرائيل، أي أنه تم فيها تتويج أول اعتراف عربي بإسرائيل والإعلان الرسمي عن تشرّدنا كشعب.
رودس، عادت اسماً في الأخبار، نتوءاً لا يليق ببهائها، وساحاتها الصغيرة الزاخرة باليمام والحسان، عادت، على غير ما نرغب، مكاناً يستقبل وفدين، تحت عنوان الحوار، أو البحث عن السلام الذي ضيّعه رئيس مجلس وزراء القتل الإسرائيلي نتنياهو، أو المفاوضات بين الراغبين في التعايش من الشعبين. ويا ليت ذلك كان الهدف الحقيقي، أو السبب الرئيس، أو الدعوى التي يستظلّ في ظلها الداعون للتطبيع، لأن الصورة العالقة في ذهن العالم للسيد الرئيس عرفات، وهو يصافح رابين في البيت الأبيض، لم تأخذ مداها ومضمونها الحقيقي على الأرض، بسبب التعنّت اليميني الحاكم في اسرائيل، وبالتالي، فإن مهمة شاقة جديدة وقعت على أكتاف الفلسطينيين، تستدعي أن يعيدوا شرح المشهد للعالم، ويقولوا له إن السلام لم يتم، بل إن الحرب الاحتلالية والتهويديّة مستمرة بضراوة وتسارع ينذران بالانفجار، بمعنى أن أي لقاء فلسطيني إسرائيلي -الآن- يسهم في التعمية لصالح إسرائيل، ناهيك عن أنه لقاء ثقافي، ويعني أن كل شيء على ما يرام.
ثم إن اللقاءات التي كانت تتم بين فلسطينيين وإسرائيليين قبل أوسلو، كانت على أسس أهمّها أن اللقاءات يجب أن تتم مع إسرائيليين يعترفون بحقنا في تقرير المصير وإقامة دولتنا المستقلة على ترابنا الوطني وعاصمتها القدس الشريف، وتكون خارج فلسطين، لأننا -كفلسطينيين- كُنّا تحت بسطار القمع الاحتلالي، وبالتالي، لا بدّ من وجود شاهد وفي بلد

محايد، وثمة اتفاق على جدول أعمال أو أجندة، حتى لا يكون اللقاء مجانياً وأقرب ما يكون لحوار الطرشان. أما اليوم، فلدينا أراض محررة، ولا داعي للسفر إلى شواطئ رودس أو غيرها، والأهم من كل ذلك، لدينا سلطة أو كيان، وبالتالي، لم تعد المسألة كما كانت قبل أوسلو.

إن علاقتنا مع إسرائيل ما زالت غير طبيعية، وباعتقادي أنها لن تكون في يوم من الأيام، الأمر الذي يدفعني للتوضيح بأننا مضطرون لشراء حاجياتنا الأساسية من إسرائيل لأنه لا سلطة لنا على المعابر والحدود، وأننا مضطرون للكلام مع جنود الاحتلال على الحواجز الدامية، وفي السجون وعلى نقاط التفتيش، وأن الحوار الوحيد السائد مع إسرائيل وقواتها المحتلة هو حوار الموت والمجابهة.

وفي أحسن الأحوال، المفاوضات على تطبيق ما تمّ الاتفاق عليه بين السلطة وإسرائيل، وبصرف النظر عن أية ملاحظة على كيفية المفاوضات، إلاّ أن الموقف الفلسطيني المحاصر والمضغوط، ما زال يتمترس خلف مطالبه وحقوقه، إذن، لا مبرر لأي شقيق عربي أو صديق لأنْ يدّعي أن أصحاب الشأن الفلسطينيين يقيمون علاقة «طبيعية» مع إسرائيل، تبرر له قيامه بعلاقة طبيعية معها. وثمة مسألة شديدة الأهمية وهي ضرورة معرفة إسرائيل، ومتابعة كل ما يدور فيها وإدراكه عن كثب، ما يعني أهمية معرفة الخصم وحدود قوته وضعفه وتوجهاته، وهذا يمدّنا بأسباب القوة والمناعة والتخطيط المتقدم الناضج، فالمعرفة غير التطبيع، لأن التطبيع في جوهره هو قبول التعاطي مع إسرائيل بشكل طبيعي، مما يعني قبول أدبيّاتها ورواياتها عن نفسها وعنّا، وهذا ما لن يحدث، ولم يحدث بالتأكيد.

وأنا على يقين بأنه لا يوجد إسرائيلي، إلاّ قلّة لا تذكر، إلاّ ويوافق اليمين المتطرف الإسرائيلي في قضايا أساسية مثل القدس عاصمة أبدية وموحدة لإسرائيل، وعدم عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم التي أُخرجوا منها، وإبقاء المستوطنات الاستعمارية في الضفة الفلسطينية، وغير ذلك، أي ما هي الجدوى، إذاً، من هذا الحوار الكاذب والاستعراضي، الذي لا يجرّ علينا إلاّ كل أذى وخراب . . . اللهم إلاّ أن عدداً لا يذكر منا قد أفاد من السفر إلى رودس أو غيرها، بأن تمتّع بالسباحة على شواطئها الساحرة، وتذوّق السَلَطة اليونانية، وأعطى لبعض الصحافيين الاسرائيليين مادة شهية، للسخرية منّا ومن تخلّفنا في تناول الطعام والشراب والجهل باللغات وتقديم الأدلّة، أو في أحسن الأحوال، مادة أكثر إغراء في تصوير أجساد اللواتي خلعن ثيابهن ليسبحن في البحر أو العار.

وأخيراً هل نسأل، لماذا تم اللقاء في رودس بالذات؟ ولماذا يتم انتقاء مناطق لها تاريخ معيّن يدلّ على هزائمنا، وهل يعيد الإسرائيليون ربط الأمكنة التاريخية على طريقتهم، كجزء من روايتهم عنّا، أو للتدليل على معنى ما؟

إن دخولنا أو انغماسنا في مفاهيم الآخر، لكي نرى أنفسنا بعيونه، يفقدنا ذاتنا، ورودس لا تعني لنا، وللآخر الشيء نفسه، وبالتالي، فإن اللقاء فيها لا يعني الشيء نفسه إطلاقاً، ولنسأل أنفسنا: لماذا لم يعقد هذا اللقاء في سويسرا المحايدة مثلاً؟ وهل لدينا المعنى المقابل للمعنى الذي يعطيه الآخر لرودس، إنني أشك في ذلك؟

وهل اللقاء في رودس بالذات يعيد صياغة معنى المكان بالنسبة لنا، وفي

الذكرى الخمسين للنكبة بالذات، أم أنه يؤكد أن هزيمتنا مستمرة ونكبتنا، وأن الآخر لم يزل منتصراً ومتفوقاً، وهل معنى ذلك أن تعامل الإسرائيليين معنا ومع تاريخنا لم يزل يجري بطريقة التفافية، ويجرّنا إلى شارع خلفي نفقد فهمنا لما نفعله، ويعلن قبولنا بما لا نعيه؟

عشـية انفجـارات 2001/9/11 فـي أمريكـا

أسئلة برسم بيانات المثقفين "الاستنكارية"

استيقظتْ، فجأة، الأنظمة العربية والعالمية، ودعت شعوبها إلى البكاء وحمل الشموع، والصلاة على أرواح الموتى، ونعف الزهور علي شواهد غائبة لضحايا التفجيرات المفزعة في نيويورك وواشنطن! ووقف ممثلو الشعوب يتمتمون بالقرآن الكريم والإنجيل، ويقفون خشوعاً ترحّماً على الأجساد التي مزّقتها الطائرات في الأبراج والبنتاغون.

وعندها أدركت أن الدم الأمريكي يستحق كل هذا التبجيل، وينبغي له هذا الشجن والتعاطف والمسيرات والدموع!! أما نحن الفلسطينيين، فإننا، مثل خالد بن الوليد، على مثله تبكي البواكي .. ولكن لا بواكي لنا! فقد منعت أنظمة عربية صلوات الغائب على أرواح موتانا، وحالت الهراوات والكلاب دون المظاهرات القليلة المؤيدة لموتنا الشريف، وغام العرب والمسلمون في سكرات جهلهم ولا مبالاتهم أو تآمرهم على مَنْ يدافعون عن شرفهم وقبلتهم الاولى ومسرى رسولهم ومولد أنبيائهم المطهّرين.

إن هذا المراء المُحزن، وهذا النفاق الجبان يزيد على حزننا حُزناً، لأننا حزينون، بالفعل، على ضحايا أمريكا، ولأن واحداً وعشرين شهيداً سقطوا، بعد ساعات من التفجيرات، في فلسطين، لم يستحقوا كلمة أو نأمة أو تقطيب جبين من أُولي أمرنا، من المحيط إلى الخليج، ومن أسياد عصرنا في القارات الست!

وبعد، فإنني لم أرغب يوماً في طرح مداخلتي وتبيان موقفي من بيانات الاستنكار التي يمهرها بعض المثقفين والإعلاميين الفلسطينيين والتي يفترض أن تكون مكرّسة لإدانة الإرهاب لسببين؛ أولهما أنني ضد كل أشكال العنف والإرهاب منذ مقتل هابيل على يدي أخيه قابيل، حتى

مصرع آخر رجل في نيويورك، أو مقتل امرأة في الشيشان، أو استشهاد رضيع في فلسطين. وثانيهما لأن ثمة موضوعات- في فلسطين الانتفاضة - أكثر أهمية وسخونة من الاستدارة لمناقشة هذه البيانات الورقية.

غير أن تكرار هذه البيانات أصبح ظاهرة تقترب من الموضة المجّانية منها لتأصيل موقف مسؤول يقدّم الرأي الأعمّ والغالب لجموع المثقفين والإعلاميين الفلسطينيين، الأمر الذي يعكس جزءاً من وجهة النظر، وليس كل وجهات النظر، أو يسيء إلى الموقف الأكثر شمولية وحقيقية لكل المثقفين والإعلاميين في فلسطين.

ولكن، وقبل كل شيء، ينبغي التأكيد على مسألتين، الأولى أن لكل فرد الحق الكامل والمقدس في تقديم وجهة نظره مهما كانت، ولنا الحق في مناقشتها دون المساس بحصانة الموقف والشخص. والثانية أنه لا يوجد في فلسطين «ممثل شرعي ووحيد للمثقفين» الفلسطينيين يصرّح باسمهم وينطق بما تختلج به ضلوعهم.

غير أنّ سؤالاً استنكارياً يتقدم تجاه سيل تلك البيانات وهو: لماذا لم يصدّر هؤلاء المثقفون بيانات استنكار ضد المجازر الفظيعة التي ارتكبت بحق الابرياء في البوسنة أو الشيشان أو العراق؟ وما دام الموقف المبدئي من الإرهاب لا يتجزّأ فلماذا يتم استنكار مذبحة والتغاضي عن مذابح أكثر شراسة وترويعاً. . وتصل إلى حدّ إبادة شعب كامل؟ ثم أليس الانتقاء موقفاً يدلل على رغبة وسلوك؟ وهل نحن، في فلسطين، مطالبون بتصدير بيانات تستنكر ما تقوم به فئة من شعب ضد الشعب نفسه؟ وإذا كان الأمر كذلك، فعلينا إذاً أن ندين إرهاب الدول ضد الأبرياء، وندين

الإرهاب العنصري والديني والعرقي، وندين كذلك إرهاب الجماعات المأجورة من أبي سيّاف في الفلبين إلى إرهاب جماعات السموم في اليابان. وهل نمتلك الخيط الذي يفصل بين ما تقوم به الخمير الحُمر أو الجيش الأحمر الياباني أو الجيش الجمهوري الإيرلندي أو حزب الله في جنوب لبنان أو المقاومة الفلسطينية، وبين انتساب بعض هؤلاء للمقاومة المشروعة او للجماعات الإرهابية العمياء؟

إن الشرائع السماوية والوضعية توافقت على مواصفات المقاومة وأقرّتها، مثلما وضعت التوصيف المناسب للإرهاب وحاربته. ونحن في فلسطين نؤيد المقاومة ونهتف لها، ونقف بحسم صارم ضد كل اشكال الإرهاب، بكل أنواعه ومستوياته، وعلينا أن نتخذ موقفاً جليّاً، غير انتقائي، وبعيداً عن المناسبات والرغبات، لتأييد الأوّل ونفي الثاني. وأن نتنبّه إلى أن مصلحة بعض الدول العظمى تخلط، بوعي مقصود، بين المقاومة والإرهاب، وعلينا ألاّ نسقط بشكل ساذج في فخاخها المفضوحة.

والمعروف أنّ المسلمين والعرب هم أكثر مَنْ اكتوى بنار الإرهاب والعنصرية منذ محاكم التفتيش وحملات الفرنجة على بلادنا حتى ما أنتجته «سايكس بيكو» وما تقوم به إسرائيل من فظائع ومجازر تماهياً مع دورها الوظيفي المنسجم تماماً مع الدول الكبرى التي تمتص ثرواتنا وتحاول مصادرة مستقبلنا وتحطّم أحلامنا، عداك عما تعرّض ويتعرض إليه المسلمون في البوسنة والهرسك والشيشان والعراق وفلسطين. بل إنّ أعتى القوى عنصرية وفاشية وشراسة لم تكن يوماً إسلامية أو عربية؛ بدءاً من النازية ومروراً بالفاشية وانتهاءً بالفصل العنصري أو الاحتلال الإسرائيلي الكولونيالي.

ذلك لأن جوهر الإسلام والحضارة العربية يقفان على النقيض من الإرهاب والعنصرية واستلاب الأمم واستعبادها وإبادة الشعوب وضربها بالذرّة والحصارات المميتة.

ثم إنّ استنكار فعل همجي يستهدف شعباً ما هو ضرورة إنسانية، تختلف، في جوهرها، عن استنكار فعل همجي قام به نفرٌ منّا، فنقوم لإدانته والتعبير عن رفضه. بمعنى أننا نستنكر وندين العمليات الإرهابية التي استهدفت نيويورك وواشنطن، ليس لأننا - عرباً ومسلمين - مسؤولون عن هذه الأفعال المشينة، بل لأننا ضد الإرهاب ليس إلاّ. إما أن يقوم نفرٌ منّا بالاستنكار، مستغفرين من أمريكا، ومنافقين لها، وخائفين منها، لانهم صدّقوا روايتها غير المعقولة بأن عرباً ومسلمين قاموا بهذا العمل الجبان المرفوض .. فهذا ما نربأ بهم أن يقوموا به. ثم لماذا لم تهبّ الدول المنافقة المرائية الجبانة - ومنها عدد من الدول العربية والإسلامية - بالاستنكار ووضع مقدّراتها تحت تصرف الحقّ والعدالة، لإدانة ما تقوم به إسرائيل من إرهاب مُنظَّم ضد الأطفال والنساء والبيوت والطيور المفزوعة؟ لماذا لم ينبس هؤلاء ببنت شفة ضد الأباتشي والـ(اف 16) التي تدكّ أعناق الشيوخ والأشجار في فلسطين؟ لماذا لم نسمع عن دعوات لجوجه تلحف للاصطفاف ضد الإرهاب، والتي تمثلّه الآن إسرائيل المدعومة كليّاً من الإدارة الامريكية. وهل سيطرح هؤلاء السؤال الواجب القائل: أين احتلال إسرائيل وموقعه من الإرهاب؟

ولماذا لم يقم المثقفون العرب بالصراخ مستنكرين في براري الصمت العربي والدولي ـ وبعضهم مقروء ومعروف وبعضهم نجم يشار إليه بالبنان ـ ليوقفوا بصراخهم - وهو أضعف الإيمان وسلاح المغلوب على

أمره - المجازر التي تنفذها حكومة الإرهاب الإسرائيلي؟ لماذا؟ خصوصاً أن أبرزهم دعا إلى إلغاء مؤتمرات، أو شارك في فعاليات مشابهة؟ لماذا؟ إنّ للعنف والإرهاب أسباباً اقتصادية واجتماعية وإثنية، وبعضها ينهض على سبب عقدي، وهنا ينبغي البحث عن الخطأ في الخطيئة وليس عن المخطئ فحسب.

ثم إنّ التطوّع لصياغة بيان استنكار - لهدف إعلامي أو إنساني أو سياسي - مطلوب، ولا يضير إلاّ إذا تجاوز حقيقة أو غفل عن معطيات دون أخرى، أو إذا سقط في رؤية أو رواية النقيض، ولم يكن موسميّاً أو ينتقي الأحداث التي يستنكرها، أو بهدف تقديم حُسن سلوك لمصلحة أو هدف، أو يحاول أن يعكس التقدمية والإنسانية مبالغاً فيها، أو إنسانيين «سُكّر زيادة» كما يقولون.

ولعلّي أشير هنا إلى غير بيان من سلسلة بيانات المثقفين الفلسطينيين التي تطالعنا بها هذه الصحيفة أو تلك، غير أن بياناً صدر قبل شهرين وقّع عليه فلسطينيون وإسرائيليون (مثقفون وسياسيون وإعلاميون) ساوى بين الضحيّة (الفلسطينيين) والجزّار (الاحتلال)، وحمّل مسؤولية العنف والإرهاب للمتطرّفين في الشعبين (الإسرائيلي والفلسطيني)!! ولم يات البيان على ذكر حق العودة للاجئين الفلسطينيين. ثم نقرأ اليوم وبعد شهرين الأسماء نفسها توقّع على بيان استنكار نؤيّده في أننا ضد الإرهاب. ونختلف معه في أننا المسؤولون عمّا جري هنا أو هناك، ونذّكره بأنّ هناك ثوابت وطنية يجب عدم القفز عنها، أو أننا ملوك أكثر من الملك.

عن أيام "المكتب والعودة"

أبناء أنثى الوشق

لم يكن وقتها قد فهق الشريانُ تماماً، ولم تنتشر لمعةُ دمنا المعدني في أرجاء الأرض! كان ذلك قبل انفجار الانتفاضة العبقرية الكبرى بخمس سنوات، وكان ذلك في مدينة القدس الشريف.

كان الحريق بارداً، ولم تتّقد الجذوع البشرية كليّاً، لتضيء أمام السيدة العمياء - العدالة - تلك الزوايا الواضحة أصلاً، لتمدّ يدها، وتردّ السكاكين عن نكش الجرح الراعف. الذي انتهكته مخالب الاحتلال الإسرائيلي، وخدشت صفحاته للمرة المليون.

كان ذلك في «المكتب الفلسطيني للخدمات الصحفية» والرابض في الطابق الثالث، من عمارة صندوقة، الكائنة، مباشرةً، على ضفة شارع صلاح الدين، في قلبُ المدينة المقدسة.

كان المكتب الفلسطيني الذي تصدر عنه مجلة «العودة» يضوّع أرجاء البلد بنشاطه الوطني الإعلامي، ويعتبره الجميع المكتب الرسمي، غير المسمّى، لمنظمة التحرير الفلسطينية، في الأراضي المحتلة. لهذا كان الانخراط للعمل في هذا المكتب حُلماً نابضاً شهياً، لكلِ مَنْ يرغب في الوقوع بين يدي صاحبة الجلالة . . الصحافة. غير أن إسماً بارزاً كان يتردد كُلّما ذُكر المكتب الفلسطيني، حتى قابلت ذلك الاسم مباشرةً، وأدركت، فوراً، إن هذا الوجه المفعم بالورد لتلك المرأة يصلح أن يكون نموذجاً لصاحبة المكتب؛ ريموندا الطويل.

وريموندا إمرأة مسرفة في كل شيء؛ جمالها الذي يشبه أنثى الوشق، ويدها التي لا تُبقي على اخضر أو اصفر، وأناقتها التي تحاكي الفهد في ربيعه. وريموندا إمرأة عملية فوّاحة ومنفتحة، تُسحرك وهي تموّج ثوبها الخردلي أو شالها الحالك الذي يضفضف ببياضها وزغب عطرها

المُسيطر. هي اختيار صعب للحواس، صاحبة ذائقة وذوق أو ما يُسمّى الإتيكيت. غضبها لا يليق بحُسنها ومظهرها. تراها فلا تصدّق أن السنوات تتجرّأ عليها، فهي ابنة عُمرها مثلما هي ابنةُ اللحظة التي تأخذها وتتماهى فيها. وزّعت عمرها اليافع في كثير من الاهتمامات، مما افقدها مراكمة الإنجازات في تخصّص محدد، لهذاً فهي تشبه النجم الذي نعف نثاره المضيء في كل اتجاه، ولم تكن كوكباً ثابتاً في ركن من أركان الجهات.. لكن حجارة نجمها فريدة ولها بريق ظاهر، ولا تشبه الحجارة الفائضة على جنبات الطريق. إمرأة متواضعة وجميلة.. وترغب، بغموض واضح، أن تترك بصمة ما على جدار الحياة.

وكان إبراهيم قراعين شريكاً كفوءاً لريموندا في المكتب مثلما كان الزملاء: رضوان أبوعياش، باسم أبو سميّة، عبد الكريم سمارة، علي قعدان (رحمه الله)، وليد العمري، عبد اللطيف عقل (رحمه الله)، الياس زنانيري، جواد الجعبري، سليمان منصور، إبراهيم سجدية، محمد كيّال، عمر الغرّة وداود إبراهيم وغيرهم الكثير.

بعد حين تنكشف الستائر، ويأخذنا موج العمل سويةً، ونتعرّف إلى بعضنا جيداً؛ وتبدأ علاقات متباينة فيما بيننا، تعلو لتصل إلى الزيارات العائلية، أو تستقر لتبقى على مستوى صحن الحمص والفول على مائدة الفطور الجماعي.. يومياً. وتبدأ تدرك نسيج العمل والعلاقات الثنائية والشطحات الغنوصيّة والمغامرات ما بعد ساعات الدوام. وتكشف المستوى الثقافي والفكري والفكاهي وقدرات الزملاء من حولك.. والاستعدادات لتطوير الذات وصقل المدارك والتعلّم والاستماع والمشاركة والتشاور مع الآخرين. وربما أجمل ما ميّز علاقات الإملاء

في المكتب، انهم كنوا يقبلون بعضهم البعض كما هم. بحسناتهم وثغراتهم وما إنفطروا عليه. . بل ويتقبّلون أمزجة بعضهم وغرابة بعض تصرفاتهم نفور بعضهم الآخر. . وعندما تنتهي ساعات الدوام الرسمي، كانوا يتركون كل ذلك داخل المكتب، ودون ان يجرّحوا بعضهم أو يسيئوا لهذا أو لتكل. كانت أيام تفاعل وتعلّم وعطاء وظُرف. . دافئة حيوية وممتلئة. . وأبهى مما كنّا نعتقد. في مطلع العام 1984 التحقت للعمل متفرّغاً في المكتب الفلسطيني ومجلة «العودة».

بلغة أخرى، انفتحت أمامي، منذ تلك اللحظة، أبواب الحظّ والانطلاق والأرض الراسخة والأحلام. بمعنى، لو لم التحق بالمكتب والمجلة، فلربما ما أصبحتُ رئيساً لاتحاد الكتاب الفلسطينيين، ولما تعرّفت على كل مَنْ كانوا واصبحوا مفاتيح الحلّ والربط في السياسة والعمل الجماهيري والصحافة والوطنية والثقافية، ولما تيسّرت لي تلك الفرص الذهبية للسفر والمشاركة والحضور. إن الوفاء يُلزمني أن أردّ المعروف لأصحابه، والواجب يفرض عليّ أن لا أنكر فضَل مَنْ ساعدوا. . واقدّموا وساندوا. . وربما دون أن ينتظروا منّي أو من غيري هذا الاعتراف الحُرّ الواجب، وهذا العرفان الصحيح.

إن المكتب الفلسطيني ومجلة العودة، ومن ورائهما السيدة ريموندا الطويل والسيد إبراهيم قراعين وباقي الزملاء. . كانوا البيت الرئيس الذي انطلقنا منه محلّقين في آفاق الإبداع والعمل الوطني والمسؤولية.

وكانوا جادّين مجتهدين، يواصلون نشاطهم وأعمالهم بأمانة وإخلاص ودأب وانتماء. لكن المكتب الفلسطيني كان بوابة العبور ونقطة الانطلاق وفضاء تحقيق الذات والتكريس والمنجزات.

في المكتب الفلسطيني ومجلة العودة، تعلّمت أبجديات الإعلام والتحرير الصحفي، وتطورت معرفتي في كيفية إقامة العلاقات العامة، وبناء الاتصالات وآليات التأثير، وخصوصاً أن المكتب كان ذا صلات وعلاقات، لا محدودة، مع كل الجهات الدبلوماسية والحزبية والتجمعات المدنية في العالم العربي وأوروبا وأمريكا وغيرها، مما اكسبنا معرفة دائرة السياسة الخارجية بكل إنكشافاتها وغموضها، وندرك لاحقاً، روافع المثير من الأحداث وأسبابها و النتائج التي ستضفي إليها مثلما كانت مجلة «العودة» تفتح مكاتب لها في كل مدن الضفة والقطاع وفلسطين المحتلة عام 1948، مما فتح المجال للتعـرّف علـى كل ايقاعات الحياة والمقاطع اليومية للمواطنين في كل أرجاء فلسطين، مما جعلنا نبصر فسيفساء الخارطة، بكل أبعادها وتفاعلاتها، حاجاتها ومشكلاتها وتطلعاتها المخنوقة، عبر أذرع المكاتب واستطالاته واتصالاته.

ولعله من الصعب أن أنسى تلك المهمّات التي كُنّا نقوم بها في طول الأرض المحتلة وعرضها، لإجراء التحقيقات الصحفية، والقصص والريبورتاجات، والتحقق من الأخبار وجمُع المعطيات، وإجراء المقابلات وأخذ الآراء« وكُنّا لا نترك مشكلة إلاّ ونحاول إضاءة كل أبعادها واقتراح الحلول لها والاستماع لأطرافها، مثلما كُنّا نسعى لإنهاض بعض الظواهر الإيجابية، ومكافحة بعضها السلبي، كما كنّا نسعى لإبراز اوجه الحياة المتصاعدة فلسطينياً، كجزء من نظرية التحّدي، في مواجهات استراتيجيات الاحتلال وغوائلة الهادفة إلى إلغائنا وطمس معالمنا واستلابنا وتغريبنا. . لقد كُنّا نحمل آلة التسجيل وآلة التصوير. . نجوب المدن والقرى والمخيمات. . نتعّرف على ناسنا وأرضنا وحياتنا. . بدأنا

من الصفر ورحنا نكبر في المكتب الفلسطيني ومجلة العودة. . وربما لهذا التطور التراكمي والصعود الطبيعي بقينا حاضرين. . ولم نتبخرّ سريعاً. إن مَنْ يريد أن يصل عليه أن يبدأ من أول المشوار، وهكذا فعلنا. .

ولعل وقوف كل المسؤولين أمام أبواب المكتب الفلسطيني، والذي هالني باديء الأمر، وتلك النقاشات العميقة والساخنة التي كانت تدور في صالون المكتب، قد جعلتنا نتعرّف على آفاق واتجاهات الحراك الوطني والتنظيمي، وعلاقة كل ذلك بمنظمة التحرير التي كانت مكاتبها في تونس آنذاك.

ولا أبالغ، إذا أكدت، أنه ما من شخصية وطنية أو نقابية أو حزبية أو أكاديمية أو إعلامية إلا وكانت تحجّ للمكتب الفلسطيني، بدءاً من كل تلك الأسماء التي أصبحت أعضاء في اللجنة التنفيذية أو وزراء في السلطة الوطنية الفلسطينية أو نقباء أو مسؤولي ملفات وهيئات أو أعضاء كنيست عرباً. . وانتهاءاً برؤساء البيلديات ورؤساء تحرير الصحف ومسؤولي الجامعات والاتحادات، الذين كانوا يأتون للمكتب لإيصال شكاواهم أو مطالبهم أو مواقفهم إلى تونس عبر المكتب الفلسطيني. . عداك عمّا يحدثه كل ذلك من جدل واختلاف ومداخلات وآراء. . لقد كان المكتب الفلسطيني بؤرة تمور بالحياة والجدل والتوثّب. . وكانت هناك نقاط ارتباط للاتصال بالقيادة في تونس عبر قبرص، اليونان، روما أو باريس.

كان المكتب الفلسطيني ومجلة العودة، وعبر المكاتب في المدن الفلسطينية وعبر تلك اللقاءات يحرر نشرة أخبار يومية يغطّي فيها كل ما يدور في فلسطين، ويبعثها عبر الهاتف للقيادة، أو عبر الفاكس، لاحقاً إلى من يهمّه الأمر.

وكانت القيادة، بالمقابل، تبدي اهتماماً واضحاً بما يصل إليها، وذلك من خلال ردودها وأسئلتها وتقديمها للحلول التي تترجمها أو تنصح بها.

وربمّا تنبّه المكتب الفلسطيني، قبل غيره، إلى البحث عن معرفة النقيض- الاحتلال الإسرائيلي، من خلال قراءة الصحافة الإسرائيلية ومتابعة الإعلام ومراكز الأبحاث العبرية، للتنقيب عن كل ما هو ملفت أو عن آراء واستطلاعات وقدرات دولة الاحتلال.. بل ومن خلال الجرأة على إقامة علاقات واتصالات مع ما يسمى بقوى السلام في إسرائيل أو معسكلا اليسار، الذي كان، بعض رموزه، يأتون لزيارة المكتب الفلسطيني مثل يوري أفنيري ولطيف دوري وعدد من أعضاء الكنيست، وعدد هائل من الصحفيين الاسرائيليين ومراسلي وكالات الأنباء اليهود.. الذين لم يكونوا كلهم صحفيين كما اتضح لاحقاً ولا أكشف سراً إذا قلت إن في أروقة المكتب الفلسطيني كانت تتم عملية تركيب الهيئات الإدارية لكثير من النقابات والاتحادات والجمعيات، من خلال اجتماع ممثلي الفصائل الوطنية الفلسطينية(فتح، الجبهة الشعبية، الجبهة الديمقراطية، والحزب الشيوعي الذي صار حزب الشعب) والذين كانوا يسيطرون على كل المؤسسات الأهلية، مثلما كانوا يغلّبون البعد الفصائلي وسيطرة القوى الوطنية على البعد المهني لهذه الاتحادات والنقابات.. مما أضعف هذه النقابات والاتحادات لاحقاً.. لكن ذلك كان ضرورة ملحة تفرضها محاولات الاحتلال الاسرائيلي الهادفة إلى تفريغ هذه المؤسسات من مضامينها والسيطرة عليها أو الغائها ومحاصرتها عبر الملاحقة والسجن والاغتيال.

حركة فتح لم تلق بالاً للعمل الجماهيري، عبر المؤسسات، إلاّ في مرحلة لاحقة، كانت باقي الفصائل قد سبقتها إليه، لكن حركة فتح، وبسبب توافر عناصرها مسبقاً في كل مكان في فلسطين، وفرّ لها الغلبة في السيطرة على معظم النقابات والتجمعات والاتحادات، رغم أنها لم تكن سبّاقة في تأسيسها أو العودة لتأصيلها وإنشائها. وربما، وفور انتباهتها لأهمية العمل الأهلي، اكتسحت نتائج الانتحابات التي لم تكن أكثر من صدى لاتفاق ممثلي الفصائل الأربعة. وهذا انطبق على رابطة الصحفيين واتحاد المعلمين والمرأة والعمال ونقابات المهن الطبية والمحامين واتحاد الكتّاب والأدباء الفلسطينيين. وربما لا أكشف سرّاً جديداً إذا أشرت إلى أن القيادة في الخحارج كانت تقترح اسم النقيب أو رئيس الاتحاد أو بعض أعضاء الهيئات الإدارية ليكونوا ممثلي هذا الفصيل أو ذاك في هذا الاتحاد أو تلك النقابة.

ومجلة «العودة» التي كانت تشرف عليها السيدة ريموندا الطويل ويرأس تحريرها الاستاذ ابراهيم قراعين، كان سكرتير تحريرها الأخ رضوان أبو عياش، الذي كان مشغولاً مع ريموندا وابراهيم في العمل الوطني والتنظيمي والاتصال بالخارج.. مما أتاح الفرصة لمحري مجلة العودة أن يجدوا برّاً مفتوحاً يطرّزوا عليه وقع حطواتهم وآرائهم، ويطرحوا في مساحاته الحرّة كل المشكلات والمتاعب التي تواجه الناس، ويكتبوا دون سقف أو قيد آراءهم وأفكارهم في كل ميدان. أي أن مجلة العودة كانت أرض التجريب الواعي لعملنا الصحفي والفكري، وحقل الفلاحة الذي أنبت أشجاراً خضراء ممرعة، ما زلنا نتفيّأ ظلالها ونعبق بشذاها الطيّب.. البعيد.

كان مسؤولو المكتب الفلسطيني كرماء وليبراليين ومتسامحين، رغم كل شيء. وقفوا مع كل واحد منا، حين احتاج أو وقع في مطب، وتسامحوا في أن يعمل، من شاء منّا، مع تلك الإذاعة في الخارج أو وكالة الأنباء هذه أو تلك الصحيفة.

كان الجميع يطبع أعماله في المكتب الفلسطيني، ويستخدم آليات اتصال المكتب الفلسطيني، ويوظف صفحات مجلة العودة لإبراز وجهة نظره أو فلسفته أو موقفه.

وكان المسؤولون لا يألون جهداً في الاصطفاف للوقوف خلف كل واحد منا ليصبح ذا موقع أو مكانة أو قدرة . . . وهذا ما يفسر أن رضوان أبو عياش صار نقيباً للصحفيين مثلما أصبحت أنا رئيساً لاتحاد الكتاب، وأصبح ابراهيم سجدية سكرتيراً عاماً لرابطة الصحفيين كما يوضح الكيفية التي جعلت باسم أبو سمية مراسلاً لإذاعة مونت كارلو ووليد العمري لإذاعة الشرق وعبد الكريم سمارة مراسلاً لعدد من وكالات الأنباء والمحطات الصحفية وكذلك الياس الزنانيري. . وغيره. تماماً مثلما استطاع عبد اللطيف عقل أن يطبع غير مجموعة شعرية له وكذلك أنا، ويطبع عبد الكريم سمارة أولى مجموعاته القصصية ويطبع رضوان أبو عياش كتابين له حول الصحافة والإعلام. وبوساطة المكتب الفلسطيني تمّ الاتصال بيني وبين يادات في الخارج أول مرّة، ةوكذلك الالتقاء مباشرة بالسيد الرئيس ياسر عرفات. . الذي كان يعتبر المكتب الفلسطيني عائلة من عوائله القريبة نعم لقد كنّا عائلة واحدة.

وليس من باب المبالغة القول إن المكتب الفلسطيني كان الترس الذي ردّ السهام المسمومة التي كان يوجهها البعض لمنظمة التحرير الفلسطينية،

مثلما كان المدافع الأكثر إخلاصاً ونشاطاً وولاءً عن القيادة الشرعية للمنظمة. كان مسؤولو المكتب يعدّون العرائض تلو العرائض ويصلون ويتصلون بكل المسؤولين والشخصيات والقيادات في الضفة والقطاع ليوقعّوا هذه العرائض ويمهروها بأختامهم.. وكانت مضامين هذه العرائض تؤكد على الوقوف خلف منظمة التحرير وخلف قيادتها الشرعية، وتصرّ على أن أية مفاوضات ينبغي أن تكون مع تونس ليس إلاّ، لقد أسهم المكتب الفلسطيني ومجلة العودة إسهاماً هائلاً في محاربة القيادة البديلة وروابط القرى والإدارات الإحتلالية.. مثلما أسهم في مساندة القيادة كلّما تعرّضت لرياح وشائعات سوداء أو لمكيدة رخيصة من هنا أو هناك.

وفي المكتب الفلسطيني، ربما، هجس الجميع ببشرى اندلاع انتفاضة ستقلب كل موازين الاحتلال ورهاناته الخاسرة.. ولهذا، واصل المكتب عمله، ليل نهار، دون كلل أو تعب، في تغطية أحداث الانتفاضة، ساعةً بساعة، ولحظة بلحظة، وأوصل المكتب اقتراحاته الأمنية الحريصة لقيادة في الخارج، وأقام خلايا ناشطة للاتصال بكل أشكال الصحافة في العالم، ورعى الصحفيين ووكالات الأنباء، وسهّل أعمالهم في كل مكان، ووفرّ لهم ما يحتاجونه، لينقلوا بلاغة الدم الفلسطيني المسفوح إلى العالم.. ليرى ويستيقظ من جديد.. الأمر الذي يفسر اعتقال اكثر من نصف أعداءنا العاملة في المكتب لفترات طويلة في سجون الاحتلال.. واقتحام المكتب بشراسة وأعمال التخريب والتحطيم فيه، وإغلاق مجلة العودة لمدة ست سنوات وملاحقة مسؤولي المكتب المجلة..

إن خليّة النحل التي كانت تدّب في المكتب الفلسطيني. قد وصل شهدها إلى كل مكان، تدّب في المكتب الفلسطيني. قد وصل شهدها إلى كل مكان، وأشاعت العافية والحقيقة في كثير من الرؤوس والأبدان.. وبالتأكيد، ويرجع الفضل إلى الله قبل كل شيء، ولكل المسؤولين والزملاء والزميلات الذين اثبتوا بعد سنوات انهم أهل الإبداع والخلاص والثبات.. وانهم أبناء حقيقيون لتجربة عميقة وثرية وخاصة ولدت في المكتب الفلسطيني ومجلة العودة وها هي تتوالد في الكثير من المواقع والمؤسسات ووكالات الأنباء.. وأن خليّة النحل هذه كانت تقودها ملكة حقيقية هي السيدة الطيبة ريموندا الطويل، التي، لم تتسع للشهرة الخاوية، ولم تتشدق بسنوات العمل السمان.. في حين أن من كان يقف على بابها البارحة، لا يتذكر كيف كان.. ومن الذب أوصله لإلى ما هو عليه الآن.. لكنه الوفاء الذي لا يقدمه إلاّ كل حرّ وحقيقي واثق. فللسيدة ريموندا المحبة والعرفان ولابراهيم قراعين الشكر والتقدير ولكل الزملاء الذكرى الطيبة الباقية.. التي ستبقى ما بقينا.

ومضات عن اليساري
والجنون والتطرف

(1)

استمعت، مؤخراً، إلى شاعر «كبير»، يقول ما مفاده إن الشاعر الحق لا بد أن يكون يسارياً، وقرأت وأقرأ دائماً أن المثقف الحقيقي هو المثقف التقدمي التنويري، بمعنى أنه غير مقيّد أو ملتفت إلى التراث. ويكون المثقف تقدمياً متنوراً بمدى عدائه وابتعاده عن أصوله.

وعلى المستوى الآخر، فإن صورة المثقف أو الأديب اليوم، تتميز عادة بابتعاده عن السلوكيات المرتبطة بالمرجعيات الدينية والأطر الأجتماعية المقبولة والمتعارف عليها.

وبصراحة أكبر وأكثر حدة، فإن سلوك ما يسمى «المثقف التنويري» كشخصية نمطية سائدة، يتميز بالاضطراب والرجرجة من جهة، والجبن من جهة أخرى.

فمسألة إنزال السلوك من المرجعيات الدينية الى مرتبة الاختيار الشخصي تعني التحلل من قيود كثيرة، ومسألة اخفاء هذا السلوك في مناسبات معينة، تعني الجبن، وكل هذا يؤدي إلى نفاق.. ونفاق كبير.

وأكثر من ذلك، فإن كثيراً من المثقفين يخفون أفكارهم الحقيقية - التي يمارسونها عملياً - في كتاباتهم، وهم يلتفون على هذه الأفكار، فيضطرون عندئذ الى الثرثرة من جهة والكذب من جهة أخرى.

ولا أرى شخصياً علاقة ارتباط بين الثقافة، باعتبارها معرفية من جهة، ورؤيوية من جهة أخرى، وبين اليسارية باعتبارها منهج تفكير ضمن ملايين المناهج الأخرى، وبالمعاني المزدحمة ضمن إطار كلمة يساري أيامنا هذه.

المثقف الحقيقي هو المثقف الذي يرى مستقبله على ضوء ماضيه، ولا يستعير مصابيح للكهوف، في حين أننا بحاجة إلى مصابيح تكشف الطريق ليس إلاّ!

(2)

إن ادّعاء «جنون الإبداع» الذي يسمح للمدعي، غرابة المسلك والمظهر والألفاظ، سيؤدي به حتماً – ولو للحظة – إلى أن يكتشف زيف ادعائه، وكذب مقولته، وبطلان مسيرته وسيرته.

إذ إن هناك مقولة شبه مؤكدة تقول إن المبدع، أيّاً كان، وبسبب من طاقته الإبداعية، تدفعه إلى اتخاذ مظهر أو سلوك غير مقبول اجتماعياً في كثير من الأحيان.

فهذا موزارت البذيء، وهذا غوته الشبق، وذاك بودلير المتوحش، ورامبو الشاذ المثليّ.. إذاً، لماذا لا أكون أنا أيضاً مثلهم؟!! وهكذا تفتح بوابة عريضة للمرور منها إلى كل ما هو غير مقبول بحجة «جنون الإبداع».

والجنون المبدع غير الجنون المريض، فالأول هو فعل لا بُدّ إلا أن يحمل غرابة ما، وثمة مسافة بينه وبين محيطه تسمح له برؤية الأشياء من جديد، وهو جنون طبيعي غير مفتعل، ولعل كتاب جيلفورد «الأسس النفسية للإبداع» يزوّدنا بأنضج المعلومات حول سلوك المبدع وآفاقه. أما مفتعلو الجنون الإبداعي، ففعلهم متناقص، ومنافق، واستعراضي، ويأخذ

من الجنون المبدع قشرته البرّانية، وممارساته الشكلانية، دون دافعيته، وافتقاده لطاقة الإبداع ذاته .

وإن أفضل من تناول «اضطراب» سلوك المبدع، وعدم انتمائه الظاهري للجماعة هما «كولن ويلسن» في اللامنتمي، والناقد يحيى الرخاوي . . وكلاهما درس صفات جنون المبدع و«غرابته» وسلوكياته غير المبررة للرائين العاديين، لكن المؤلفين ويلسون والرخاوي، جعلا من هذا الجنون أساساً حقيقياً للإبداع، مثلما نرى أن الجنون المرضي أو بالأحرى المفتعل، ما هو إلاّ مكانيزمات تعويض واسقاط وهروب وتماه . . الخ، الأمر الذي يدعونا إلى امتلاك قدرة حقيقية وذائقة عالية، للتًفريق بين المفتَعل والحقيقي . . ولعل أفضل علاج للمرضى المدّعين هو صدم وعيهم وتجربتهم، وكشف زيفها وبطلانها، وتعريفهم بحجمهم الحقيقي . . ولا شيء أكثر من ذلك، حتى لا يدّعي المدّعي، مرة إثر أخرى، أنه مكتشف الماء الساخن .

(3)

للتطرف، خصوصاً أيامنا هذه، معان وإيحاءات تكاد لا تحصى، لكثرتها وتقاطعها وتنافرها، وله من الأسباب والدوافع ما يحتاج إلى مناقشات ومراجعات دائمة .

فالتطرف كموقف سيكولوجي يكتسب عدة صفات شخصية سلوكية تتميز بالتنطع، والأخذ بالأمر الصعب، وربما المكلف والمجهد، الأمر الذي نراه واضحاً من خلال انحلالية بوهيمية، أو تزمت حنبلي وأكثر من حنبلي .

والتطرف كموقف معرفي يكتسب عادة رغبة في عدم التعرف على وجهة النظر المخالفة، أو اختزالها أو تشويهها أو رؤيتها من الجانب الأكثر ضعفاً.

والتطرف كموقف عقدي هو موقف كسول لأنه لا يرغب في النقاش أو المحاورة أو الجدال. بل يكتفي بمقولاته الجاهزة التي لا تقبل الشك أو المراجعة.

والتطرف في مجموعه يكتفي من الأشياء بظواهرها، وشكلانيتها، وبقوانينها، وبهذا الموقف فإن المتطرفين عادة ما يكونون جبناء بمفاهيم معينة، والمتطرف يعتقد أن ما يؤمن به من مفاهيم ومبادئ يُعتبر نهاية الأشياء ومفاتيح الكون والحياة.

ولهذا، وباستقراء شواهد التاريخ، نرى أَن التطرف أَخفى دائماً تحته هشاشة بالغة سرعان ما انكسرت أو ذابت أو انقلبت انقلاباً دراماتيكياً في لحظة اختبار حقيقية، والواقع يزخر أمامنا بما قلناه ونقوله.

الـزجـل .. الـوريـث الـشـرعـي لـلـثـقـافـات

قـوّة الـشِّـعـر

من منا لم يؤخذ بمنظر الزجال الشعبي، بأناقته الريفية، التي تلمس فيها البراءة و«العياقة» والأصالة، حيث الأناقة تُشْبه مكانها وناسها، وتؤدي وظيفتها الجمالية والاجتماعية معاً. فالقنباز «الروزا» المضيء، الناعم، والسلس، والحطّة المرعز التي تفيض مهابة ورشاقة، والحزام الذي تداخلت فيه الحلقات النحاسية بخيوط اللدائن على خصر بين الشد والارتخاء، بين الاندفاع والضمور، على حذاء أبيض هو رمز - وما زال - للذوق الرفيع على سذاجة ملحوظة، كل هذا، وغيره، يأتزر به الزجال الشعبي، ليقف في ساحة القرية أو بيدرها، على مغيب الشمس أو معها، ليقول لجمهوره، وليسحره، بالصوت والكلمة والايماءة المعبرة، وعلى أنغام تتخلق في أعماق النفس - لغياب الآلات -، فتدب الحماسة وقوة الإيقاع في الأبدان الممتلئة صحة وعافية وبراءة.

صورة الزجال الشعبي الذي يأخذ بمجامع قلوب جمهوره، صورة لا نجد مثلها عند كل شعوب الأرض قاطبة، حيث ترى قوة الشعر وقوة قوله، وحيث تلمس قوة الانفعال وقوة البيان وقوة التواصل بين المبدع والمتلقي، وهي صورة تدفع معظم الشعراء إلى «حسد» زميلهم الزَّجال. ذلك الذي لا يملك صحيفة ولا مذياعاً ولا تلفزيوناً ليثير جمهوره.

والزجل الفلسطيني زجل متعدد متنوع، متعدد الأغراض والأشكال، واللهجات، ذلك أن في فلسطين العديد من اللهجات المختلفة والمتباعدة، ففضلاً عن الصحراء والريف والمدينة، هنالك اختلافات في لهجات الريف أيضاً، فلهجة أهالي كوبر قضاء رام الله تختلف إلى حد ما عن لهجة أهالي عنزة في جنين، وكذلك هناك اختلافات في لهجاتً المدن الفلسطينية، الأمر الذي أدى إلى عدم ظهور لهجة فلسطينية جامعة

يتم بها الغناء ومن ثم قول الزجل . . وقد يفسر هذا غياب قصيدة العامية الفلسطينية لما هناك من إحساس بهذا الاختلاف في اللهجة . . ونترك المسألة للباحثين الفولكلوريين لمتابعة حرف القاف أو الكاف أو الضاد أو الثاء أو الذال، وكيف يلفظ كل واحد منها في الاراضي الفلسطينية .

إن كبار الزجالين الفلسطينيين خلال القرن العشرين شعروا بهذه الفروق في اللهجات، الأمر الذي أدى بهم إلى اختراع لغة خاصة بهم - على خصوصية كل تجربة وتجربة - .

فالزجال والشاعر الشعبي والشهيد إبراهيم نوح طوّر تجربته وفي مرحلة مبكرة من هذا القرن ،بحيث أصبحت القصيدة عنده نوعاً من الشعر الغنائي القريب من موجة تلك الأيام - ولا يخفى تأثير الغناء المصري، خاصة أن كثيرين من المغنين المصريين غنوا في حيفا ويافا، وكانت الاسطوانات تملأ تلك الحواضر في الثلاثينيات من ذاك القرن- .

أما الزجال الكبير والشاعر الثر المرحوم راجح السلفيتي فلم يطور في الأشكال الزجلية المعروفة قدر تطويره للكلمة، بحيث جعل من زجلياته تقوم بأصعب وأعقد المفاهيم السياسية والفكرية، ومن هنا يبدو الفرق واضحاً بين قراءة قصيدة للسلفيتي وسماعها . . فالقراءة لا تكون لصالح الشاعر .

أما الشاعر الزجلي الثالث فهو محارب ذيب، الذي لم يكتف بالقول، بل أيضاً بالموسيقى، ولكنه اتجه نحو الصحراء، ونحو القصيدة الصحراوية لما تمنحه من قدرة أكبر على «قول الموسيقى» على الربابة .

أما الزجال الشاعر سعود الأسدي فهو نحّات محترف، يقترب شكل زجلياته من الأندلسيات بكل ما تنفحه من جمال ودهشة ورقة .

وثمة عشرات الزجالين القوّالين المنتشرين طول فلسطين وعرضها، بحاجة إلى جمع قولهم وترتيبه وتقديمه، بكل ما يمثله من حكمة وصنعة، وتنوّع جميل.

فالزجل عندنا جغرافيا أكثر منه زجلاً واحداً موحداً، ويمكن القول إنه بقدر ما كان هذا التنوع أداة تشظية، كان أيضاً ذا منافع عدة.

*

وبالرغم من أن الأمم عرفت وبدأت بأدب المشافهة الذي كان بالمحكيّة قبل أن يتم تأصيله وتدوينه وتقعيده، فإنه، ولغاية اليوم، لا توجد قواعد إملائية لكتابته، الأمر الذي يعيق انتشاره أو يحدّ من السعي إليه، هذا مع التأكيد على أنه وريث شرعي لكل الثقافات، بل فيه من وفرة المصطلحات ما يختصر الكثير من الكلام لإيصال المعنى بكامل كثافته وأناقته.

وبالرغم من أن النقاد والدارسين لا يُقبلون كثيراً على هذا النوع من الشعر المرتجل، ظناً منهم بأنه شعر العامة أو الدهماء!! فإن هذا الشعر قادر على أن ينسينا لغته، ويزيح الستار المضروب بيننا وبينه، وينفذ إلينا مهيباً ساحراً رقراقاً.

وأعتقد، رغم آراء الإقليميين المتطرفين، أو المتحفظين المتزمتين، أن هذا الشعر شرعي تماماً، ويسدّ ثغرة كبيرة في جدار ثقافتنا، بل إنه الأكثر تأثيراً في الجماهير والتجمعات لغير سبب، أهمها أنه لغتهم، وأنه مصحوب بالغناء.

وعلينا، في المؤسسة الثقافية الفلسطينية، واجب أكيد وهو حفظ وتعميم هذه الكنوز الشعبية المهددة بالإلغاء والاستلاب، ليس للتركيز على الذات الفلسطينية المهددة بالمصادرة فحسْب، بل لنؤكد ما قاله الشاعر المرحوم نجيب سرور :

«الشعر مش بس شعر
لو كان مقفى وفصيح
الشعر لو هز قلبك
وقلبي . . شعر
بصحيح» .

هذا، عدا ما لعبه هذا الشعر من دور كبير شاحذ في الإضراب الكبير الذي شهدته فلسطين سنة 1936، وخلال كل الثورات والانتفاضات العبقرية التي تواصلت على هذه الأرض منذ مطلع القرن العشرين وحتى نهاية . . هذه الأيام ! !